مجلة القنطار للعلوم الانسانية والتطبيقة

سلسلة الآداب والدراسات اللغوية المعاصرة

شعرية المعيّة في العالم أو إتيقا التّضايف في القرية الجديدة

الاستاذ الدكتور: فتيحة كحلوش

جامعة سطيف 2 / الجزائر

تاريخ التقديم 2025/4/15، تاريخ القبول 2025/6/25 ، تاريخ النشر 2025/7/30

الملخص: يتناول هذا البحث مفهوم "شعرية المعيّة" كإطار فلسفي وأخلاقي لتأسيس علاقات إنسانية قائمة على الجمال والاحترام المتبادل في عالم القرية الكونية، وينطلق البحث من فكرة أن الإنسان كائن مجازي يسعى لتجاوز واقع العزلة والانغلاق عبر لغة وسلوكيات تكرّس التآلف، ويستعرض البحث الأسس التاريخية والفلسفية لفكرة العيش المشترك، بدءًا من النصوص الدينية وصولًا إلى الفلسفات التي عظّمت قيم المحبة والأنس. ثم ينتقل لتشخيص أبرز تحديات المعيّة في العصر الحديث، وعلى رأسها مأزق الهويات المنغلقة، وتضخم النزعة المادية والرقمية التي أدت إلى عزلة الإنسان. ويخلص البحث إلى أن تجاوز هذه المعضلات يكمن في تبني "إتيقا التضايف" القائمة على المحبة، والتسامح، والضيافة، والتثاقف، مع التأكيد على المسؤولية الأخلاقية للغة في بناء جسور التواصل بدلاً من حفر خنادق العداء.

الكلمات المفتاحية: شعرية المعيّة، العيش المشترك، إتيقا التضايف، الهوية والآخر، الفلسفة الأخلاقية، التسامح، العولمة.

Abstract: This research explores the concept of the "Poetics of Togetherness" as a philosophical and ethical framework for establishing human relationships based on beauty and mutual respect in the global village. The study posits that humans are metaphorical beings who seek to transcend the reality of isolation and closure through language and behaviors that foster harmony. It reviews the historical and philosophical foundations of coexistence, from religious texts to philosophies that extolled the values of love and sociability. The research then diagnoses the primary challenges to togetherness in the modern era, chiefly the dilemma of closed identities and the rise of materialism and digitalism, which have led to human alienation. The study concludes that overcoming these challenges lies in adopting an "Ethics of Mutuality" founded on love, tolerance, hospitality, and acculturation, emphasizing the moral responsibility of language in building bridges of communication rather than digging trenches of hostility.

Keywords:
Poetics of Togetherness, Coexistence, Ethics of Mutuality, Identity and the Other, Moral Philosophy, Tolerance, Globalization.

7/30/2025

1. مدخل إلى مفهوم "شعرية المعيّة"

الإنسان حيوان مجازي يبني خطابه على الانزياح اللغوي بحثا عن وجود استعاري يضمن له المتعة باستمرار، ويحقق له ذاته الجميلة التي لا تكتفي بالتمظهر اللغوي الجميل بل تطمح إلى ممارسة حياتية لا تقل سلاسة عن مقوله الذي قد يبدو متعاليا داخل الكتب الأدبية والفلسفية. إن التآلف مع الاستعاري الغريب على مستوى اللغة والاستمتاع به بوصفه تأليفا جميلا هو توق عميق للتآلف الحياتي مع الآخر الغريب أيضا الذي يتكلم لغة غريبة عن الذات ويحيا ضمن نمط هووي مختلف. وهذا التوق يجد مسلكه الواقعي عندما تمتلك الذّات الإنسانية القدرة على استشعار ذلك الآخر المختلف (لغة ودينا وانتماء) بوصفه "جميلا" من زاوية نظر ما أو من مجموعة زوايا، و"معقولا" بمنطق ما أو بآلية تعدد المنطق، ومُعِينا على التكيّف الوجودي وفق فلسفة: الآخر يُكمّل الذات. في هذا المناخ من "التهيؤ" لتقبل المختلف تبدأ إمكانية العيش المشترك في التّشكّل نصا أخلاقيا وواقعا حياتيا يوميا، ذلك أنه "لا يمكن لأحد أن يعيش من دون حياة يومية. والحياة اليومية غير ممكنة التصور من دون آخرين. ثمة إذن صحبة سابقة على اكتشافنا لأنفسنا الخاصة، ألا وهي صحبة "الآخرين"، وهم آخرون لأنهم جزء من إجابتنا عن السؤال: "من نحن" أنفسنا: هم شركاء في تحديد من نكون وليسوا ضيوفا ثقلاء على حدود عالمنا أو هويتنا"[1]

يتغيّا هذا النص الإسهام في البحث عما أسميته "شعرية المعية في العالم" التي يسعى الفيلسوف –بوصفه ضمير الكون ومُرمّم الذوات ومؤقلم المفاهيم- إلى تجسيدها واقعيا، تجسيدا لا يسلب الشعوب ارتباطاتها الآمنة مع أمكنتها الحميمة وتاريخها المجيد وهويتها الثقافية المتمايزة . فماذا تعني شعرية المعية؟ وما هي تحديات العيش المشترك؟ وما هي حدود وأخلاقيات التّضايف في هذا الكون الذي لم يعد محدودا ولا بعيدا ولا غريبا ولا مجهولا؟

تعني المعية في أبسط مفاهيمها "التواجد مع" و"المصاحبة" و"التشارك"، وعندما نربط اللفظة بالظرف المكاني "في العالم" فنحن نفتح فعل المصاحبة على مصراعيه ليصبح حيزا لإمكانية عبور الجميع معا، وإذ ننتقي مصطلح الشعرية كوصف لذلك العبور فنحن نتوق منذ البدء إلى نمط خاص في الرفقة منزاح عمّا أُلف، ونتغيا من مصطلح الشعرية المعنى الذي يشمل جمالية الأشياء وشاعرية الوجود والعلاقات، ويتجاوز مفهومها الضيق الذي يحصرها في كونها علما "يستنطق خصائص الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي"[2] ومع هذا سنحتفظ بدلالة ملمح الانزياح اللغوي الذي تعتني به الشعرية، حيث لا نبالغ إذا قلنا إن حياتنا هي صنيع ألفاظنا، فاللغة معين قوي على صياغة حياة أجمل عبر الأفق الذي نريده. وإذ نحيط العلاقة مع الآخر–كيفما كان هذا الآخر: أقاربنا، أبناء أمتنا، البشر في كل العالم- بالألفاظ الإيجابية المفرغة من محمولاتها الدلالية التي تنطوي على كل إيماءات العنف القديمة والمعبأة مجددا بالأساليب التي تقطر جمالا وشعرية وتأدّبا، فإن ذلك سيسهم في التقارب والاطمئنان والجوارية ورفع سقف الاحترام. ولعل هذه

[1]- فتحي المسكيني الهجرة إلى الإنسانية،كلمة للنشر والتوزيع، أريانة، تونس، ط1، 2016، ص40

[2]- تزفيطان طودوروف، الشعرية، ترجمة رجاء بن سلامة وشكري المبخوت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ،1997، ص23

أول شروط التواصل الهادئ ذي الكلمة الناعمة التي تنطوي على إنسان السلوك الحضاري الذي يُعوّل عليه في تجسيد ثقافة التشارك والعيش معا.

2. الأسس الفلسفية والتاريخية للعيش المشترك

عندما ننتقل من تبرير عنوان المداخلة لغويا إلى مضمونه الفلسفي نجد أن الحديث عن شعرية المعية في العالم، الذي ينطوي على لباقة التضايف وحسن الجوار وحميمية الصداقة، هو استحضار ضمني لسلسلة طويلة من المصطلحات التي تمليها عالمية الأخلاق وحتمية التخلق، تصالحا مع الوجود ورأفة بالموجود:العيش المشترك،التجاور،التضايف، الصداقة، فلسفة الغيرية، التآخي... وكل هذه المصطلحات تصب في نهر فكري واحد يحيل على مدلول التواصل وينضوي تحت مصطلح "التعايش" الذي فعله تَعَايَشَ " تعايشَ يتعايش، تعايشًا، فهو مُتعايش، تعايش الجيرانُ: عاشوا على المودَّة والعطاء وحسن الجوار "تعايش الرفيقان في غربتهما على الألفة- تعايشت الدّولتان تعايُشًا سِلميًّا. التَّعايش السِّلميّ بين الدُّول: الاتّفاق بينها على عدم الاعتداء. تعايش النَّاسُ: وُجِدوا في نفس الزَّمان والمكان...عيش مشترك بين أقوام يختلفون مذهبًا أو دينًا أو بين دول ذات مبادئ مختلفة"[3] التعايش على هذا النحو هو التواجد معا (أفرادا وجماعات ودولا) والتحلي بآداب وأخلاقيات تسمح بالاستمرار معا في المكان، رغم تمايز اللغات وتعدد الثقافات وتنوع الأعراق واختلاف الديانات. والحق أن العيش المشترك، وإن تداخل مع مصطلحات جديدة تنتمي إلى حقول معرفية متعددة، ليس مشروعا جديدا تماما أنتجه راهننا السياسي والاقتصادي والحضاري، بل إنه يحيل على فكرة قديمة قدم التاريخ الإنساني. فمحاولة جمع الناس والمواءمة بينهم في كيانات إنسانية متلاحمة كان منذ القديم شغل الأنبياء والفلاسفة والأدباء. ولعل القرآن الكريم كان من أبرز النصوص إلحاحا على هذه المسألة، يقول تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[4] إن الخلق أصلا تحقق في ظل الاختلاف: الذكر/الأنثى وهذا درس عميق يشي بأن شرط الكينونة الإنسانية الأول يتوقف على الاختلاف، وقد استتبع أوّلانية الاختلاف تعدد الأفراد وتنوع الشعوب لتكون الغاية الأسمى للحياة "التعارف". و"تعارفوا" هنا تنطوي على كمّ لا نهائي من المعاني التي تنتمي إلى حقل دلالي كبير يمكن نعته بحقل "الأَنَس" أو "الأُنس" والأنس في لسان العرب "خلاف الوحشة، وهو مصدر قولك أنِست به بالكسر، أَنَساً وأَنَسةً"[5] فالأنس بما هو فطرة وصفة لصيقة بالإنسان دافع للتعارف الذي يساعد على تجاوز قساوة الوجود وتذليل وحشته، والتمتع بهبة الحياة عبر المؤانسة التي تقتضي التلطف مع الآخر والتودّد إليه لطفا بالذات وسعيا لما يكملها ويجعلها محبوبة، ذلك أن"الهدف الأساسي

[3] -https://www.maajim.com/dictionary/.

[4]- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية13.

[5]- ابن منظور،لسان العرب، باب الألف، (النسخة الإلكترونية https://www.al-jawaab.com)

في الحياة، هو العيش والعيش المستساغ، وكل منا يحاول، لبلوغ ذلك، أن يتغلب على قوى التدمير الموجودة في نفسه، وأن يتخلص منها إذ يتركها تتشظى، ويغير اتجاهها، ويصهرها حتى يستطيع أن ينال في الحياة أكبر أمن ممكن"[6] ولعل هذا أول أوجه الكفاح من أجل التعارف والتعايش في سلام وتواؤم قاعدتهما الأنس كما يُشير إلى ذلك الفيلسوف التونسي فتحي التريكي عندما يقول: "العيش المشترك الذي يتحقق في إطار الاجتماعية الواعية هو تعايش منظم حسب قاعدة الأنس" [7] مستعيدا تاريخ الاهتمام الفلسفي بقضية العيش المشترك وهو اهتمام يمتد إلى سقراط الذي نزل بالفلسفة إلى الشارع وانتهج الحوار والنقاش وسيلة لإرساء أخلاقيات التواجد معا، مرورا بأرسطو الذي عد العدل والوسطية منفذا واسعا نحو العيش معا ووصولا إلى الفلاسفة المسلمين (الفارابي، ابن رشد، ابن عربي..) الذين انشغلوا بالمحبة والمؤانسة بين كائنات الوجود بوصف كل شيء في هذا العالم هو جزء من الله كما يقرّ محي الدين ابن عربي مستسلما إلى الوئام التام والتصالح المطلق مع المختلف طبيعةً ودِيناً وعرقاً، وقد لخص مبكرا فلسفة العيش المشترك بسلام بأبيات شعرية يمكن عدها ضوابط سامية للمعية في العالم:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني[8]

يبدأ الإنسان في التعامل مع الآخر بوعي قاصر ملخصه أن الصداقة لا "يجب" أن تعاش إلا مع الشبيه، فهذا يضمن قدرا كبيرا من الأمان والاطمئنان خاصة لما يتعلق الأمر بالهوية الدينية، حيث الآخر في لاوعي الذات "فاسد" دينيا ويمثل بالتالي خطرا على "الإيمان" ومن هنا وجب تحاشي الارتباط به بأية علاقة، وهذا وضع ابن عربي، وهو وضع صنعه نسق ثقافي جاهز، لكن هذا الفيلسوف الذي جعل من "فهم" الوجود هما فكريا سيتجاوز هذا المأزق متفرسا ملامح الوجود وكلما تعمق في التأمل كلما فتح بابا من أبواب التواصل مع المختلف، إلى أن تحرر من النسق وحرر "قلبه" الذي اتسع شيئا فشيئا وصار بإمكانه إيواء الجميع: المسلم والمسيحي واليهودي بل وحتى الذي لم تسعفه بصيرته بعد لتمثل أي دين.

مها اختلفت هويات الناس الدينية، اللغوية، والسياسية فإن ما يجمعهم المحبة، حيث إن كل المفاهيم التي عنت بتعريف الإنسان تواطأت بشكل أو بآخر على تعريف هذا الأخير بأنه كائن "حَبّاب". إن المحبة قيمة إنسانية جوهرية تدفع الإنسان إلى التصرف بالتفاهم والإحسان والتسامح والعطف والرحمة وتعزز بذلك العلاقات الإنسانية وتجعلها أكثر صلابة وقوة، ثم إن

---

[6]- ميلاني كلاين، جون ريفيير، الحب والكراهية، ترجمة وجيه أسعد، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ص12

[7]- فتحي التريكي، جمالية العيش المشترك، دار الوسيطي، المحرر، تونس، 2012، ص06

[8]-محي الدين ابن علي بن العربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص62.

كل الأديان والشرائع تلح على المحبة، بل إن الإنسان بفطرته ميال إلى حب الآخر الشبيه به والمختلف عنه، ومحتاج بنزعته الاجتماعية أيضا إلى من يؤنث الفراغ من حوله، ويؤنس وحشته، ويربّت على عواطفه، ويدثّر آهاته وأحزانه . إن هذه الاجتماعية "بما هي خاصية وجودية موضوعية وحاضنة للاختلاف الذي يتسم به أفراد النوع الإنساني، ويحكم علاقاتهم، تتحول إلى مقوم لتفعيل العيش المشترك، لأن الإنسان الذي يتمثلها أصبح مؤهلا للتعايش مع أفراد نوعه وجنسه الإنساني"[9] مسلما به وبضرورته ومكافحا من أجل إرساء هذا المطلب العاطفي العميق.

وإذا كان المعيار الأكثر عمقا لشعرية المعية مع الفلاسفة والمتصوفة هو المحبة بوصفها دينا آخر يشمل كل الأديان، ويجمع كل الناس، ويمنحهم رحابة احتواء الآخر، محررا إياهم من كل عوائق التواصل، فما هي معايير الأنس في الوجود كما تُتَصور اليوم؟

3. تحديات المعيّة في العالم المعاصر

لا يمكننا الحديث عن معايير العيش المشترك في عالم اليوم بمعزل عن المعيقات والحواجز التي باعدت بين الإنسان والإنسان والتي تحاول الفلسفة تفكيكها وتقويض بنيتها، بوصفها أسبابا تعرقل إمكانية التواجد معا بسلام ومحبة واحترام.

ولعل أول مأزق من مآزق التواصل بين الجماعات البشرية قضية "الهوية" والاختلافات الدينية والثقافية وهي قضية شائكة يطول الحديث فيها دوما، لهذا قال أمين معلوف: "علمتني حياة الكتابة أن أحذر الكلمات فتلك التي تبدو أكثرها شفافية في أغلب الأحيان أكثرها خيانة. أحد هؤلاء الأصدقاء المزيفين هو بالتحديد كلمة هوية"[10] إن الناس يختلفون في نسبة "تقديس" العناصر المكتسبة في الهوية: اللغة، الدين، الوطن...وكلما ارتفعت النسبة كلما ضاقت إمكانية العيش المشترك، لأن ذلك يؤدي إلى الانكفاء على الذات بوصفها "الكمال" و"الحقيقة" و"المركز"، وبوصف من ينتسب إلى هوية مختلفة نقصانا وضلالة وهامشا يستوجب التعالي عليه، حفاظا على النقاء وعلى الحقيقة، وهو ما يفجر مسائل التعصب والتسلط التي تعمق الفجوة بين الشعوب والمجتمعات وتهيئ أرضية الحروب بينها لأنها تنظر إلى الآخر بوصفه عدوا يهدد كيانها التاريخي والاجتماعي والثقافي. تصير مسألة الهوية والحال هذه تهديدا لفكرة المعية وإمكانية التعايش في سلام، حيث تصطف الذات والآخر تلقائيا في خندقين متقابلين وكلاهما على أتم الاستعداد للمواجهة. وتجاوز هذا المأزق تحقيقا لرؤية أخرى للذات والآخر ليس أمرا هيّنا ولا هو متاح للجميع ، لكنه حتمي في الوقت ذاته ينبغي أن تضطلع به نخب المجتمعات. إنه يتطلب،لا أقول إعادة النظر في تركيبة هذا

[9]-عبد القادر بلعالم، العيش المشترك في تصوف ابن عربي من أفقه الحقي إلى تجليه الخلقي خصوصيته المفهومية وممكنات تحققه الحضاري، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مجلد 10، عدد1 جوان 2019،ص76

[10]- أمين معلوف، الهويات القاتلة قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة د.نبيل محسن،ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1999، ص13

الصديق الزائف"الهوية"، ولكن في توسعة هذا المفهوم بالإضافة لا بالحذف. وأول آليات ذلك التوسيع تنطلق من إعادة مفهمة الذات والآخر وإعادة رسم (أو فتح) الحدود الجغرافية والدينية والثقافية بأسئلة معهودة تتغيا أجوبة غير معهودة و"الجدوى من إعادة صياغة هذه الأسئلة [من نحن ؟ما المعايير الجديدة التي توحد بيننا وتسطر الخط الفاصل مع الآخرين؟ هل ما زالت تتمثل في الوطن أو في الحدود الجغرافية أو اللغوية؟ هل تعتمد الخصوصيات الثقافية أم الدينية أم التاريخية؟] تتمثل أساسا في تفادي السقوط في الفولكلورية أو الثقافوية التي قد تؤدي إما إلى التمجيد والنرجسية الفارغة أو إلى التعصب والعنصرية، وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة هي التقهقر الهووي والتراجعية والتطرف فكرا وثقافة واجتماعا"[11] ولعل مسألة التطوير الهووي في عالم اليوم، الذي يشهد قيامة تكنولوجية حقيقية فصلت بين حياة أولى وحياة أخرى، باتت مسألة في غاية الجدّية. لقد تماهت الحدود الجغرافية وتمازجت الشعوب فيما بينها وتشابه الناس عبر هذه القرية الصغيرة التي كنا نسميها "العالم" في مأكلهم ومشربهم وملبسهم، وحظي تداول الوسائل المادية بديمقراطية أكبر من أي وقت مضى، كما أن إمكانيات التواصل الفعلي والتعارف اليومي بين المواطنين في هذه القرية تحققت على نطاق واسع جدا رغم اختلاف الأديان والثقافات واللغات، فهل يعزّ على هذا المواطن العالمي في كل بقاع الأرض أن يصحح مساره الهووي بشكل جمالي يجعله يتلقى الآخر كما لو أنه عطر جديد لم يستعمله من قبل، برائحة مختلفة "حتما" لكنها زكية "أيضا"، وأن يتسلح بإيمان جديد مفاده أن ما عند الآخر قد يكون مكونا إضافيا يصقل الهوية الذاتية ويثريها، وهو ما يؤكده أمين معلوف بالقول: "يجب أن يتمكن كل فرد من إدراج مكون جديد فيما يقدر أنه هويته، مكون مرشح لاكتساب المزيد من الأهمية في الألفية الجديدة ، وهو شعور الانتماء أيضا إلى المغامرة الإنسانية"[12]وحينذاك لن يرى إنسان اليوم في الآخر عدوا تتوجب مطاردته، ولكن سيبدو هذا الآخر مختلفا في بعض عناصر هويته مشتركا مع الذات في بعضها الآخر، وما هو مختلف فيه عن الذات ليس بالضرورة شرا يجب تحاشيه بل قد يكون خيرا يجب تمثله والإفادة منه. إن الأمر يحتاج إلى تصحيح صورة الآخر في المخيال الذاتي، وهو تصحيح يخص الجميع لأن الصورة التي رسمتها الثقافة للجميع غالبا ما كانت شائهة تدعو إلى التحفظ من الآخر بوصفه شرا مطلقا وعدوا متربصا يتأهب لإطلاق رصاصته القاتلة. بهذه الطريقة شارك العمل الثقافي في كثير من الأزمنة في مهمة غير ثقافية وغير حضارية ففرق بين الشعوب تحت مسمى الحفاظ على الهوية باستبعاد المختلف وإقصائه. ولتجاوز معضلات هذه التفرقة وجب علينا اليوم الاقتناع بأن معنى الهوية الأعمق لا يكمن في الانطواء على الذات والانغلاق على نماذجها المُغلّفة بوهم الاكتمال، والقطيعة مع الآخر اكتفاءً بماض تليد، وأن " الهوية القوية والفعّالة ليست ما يملكه الفرد أو يعطى له، إنها ليست كيانا ما ورائيا، وإنما ثمرة الجهد والمراس والاشتغال على المعطى الوجودي بكل أبعاده...إنها بنية يعاد بناؤها باستمرار"[13] وإعادة البناء ضرورة يقتضيها التفاعل

[11]- عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص195

[12]- أمين معلوف،الهويات القاتلة، ص142

[13]-علي حرب: حديث النهايات فتوحات العولمة ومأزق الهوية، المركز الثقافي العربي، لبنان-المغرب، ط1، 2000، ص23

الوجودي مع الآخر والانتساب إلى هذا الكون المتطلع، المغامر في كل حين. نذكر في هذا السياق أن تصحيح صورة الآخر في مخيال الذات لا يتم بمعزل عن تصحيح الصورة النموذجية للذات نفسها بما أنها لا تمثل الخير المطلق في مقابل الشر المطلق الذي يمثله الآخر. إن الثقافة التي ينتمي إليها المرء تصنع له باستمرار نماذج للبطولة والمثالية، فيؤسس منذ طفولته الأولى صورة للأب العظيم والأم الأعظم، ويواصل خلال مراحل نموه وتعلمه تمثل معجم البطولة من تاريخه ومجتمعه حتى يصل- بوعي أو بغير وعي- إلى الاعتقاد أن أبناء جلدته وحدهم عباقرة الحق ومهندسو الحضارة، وأن تراثه وتاريخه يطفحان بالأخلاق والجمال والحق وما إلى ذلك من القيم النبيلة التي لا يمتلكها الآخرون. من هنا تصير الهوية الثقافية مطلبا لذاته وتتآكل أحلام العيش المشترك في ظل هذا النزوع. ولا نغفل هنا عن حقيقة التأليف في حقل التاريخ حيث يتم غالبا استبعاد التأريخ "للسيء" الذي لا يُرضي نرجسيات الذات، وإذا ذُكر تُخلق له المبررات باستمرار حفاظا على "كمال" الشخصية الوطنية أو الدينية أو الأدبية. إن هذه "النموذجية" الثقافية المعروضة تزيد في إرباك العلاقة مع الآخر بزيادة التمركز حول الذات التي "اكتملت" وصارت معيارا لكل حقيقة ولكل فهم أو تأويل للوجود والموجود، ومن ثم يصير الموروث الثقافي عائقا أمام التواصل اللائق وأمام تحقيق شعرية المعية في العالم. ولتجاوز هذا المأزق تحتاج الذات باستمرار إلى العين الناقدة التي تُصحح مسارات الوعي، والعقل المنصف الذي يستطيع أن يتعرف إلى قصور الذات ويعترف في المقابل بصواب الآخر، ففي النهاية "الأمم والمجتمعات الإنسانية التي استطاعت أن تطور في واقعها نهج العيش المشترك، هي التي تمكنت من إعادة بناء علاقتها مع أفكارها"[14] ومع موروثها بناء لا يقوم على الجلد الذاتي ولا على الاحتفاء الأحمق الذي يُقزّم كل آخر مختلف، لكنه يقوم على التعقل والموضوعية إرساءً لثقافة الاعتراف وحسن الظن وأخلاقية التقدير، ذلك أن"الأوطان فضاء مشترك لكل الخصوصيات والمكونات ولا تبنى هذه الأوطان إلا بإعادة صياغة طبيعة العلاقة بين هذه المكونات والتعبيرات، بحيث تخرج من سياق الاستعداء والتحريض على الكراهية والمفاضلة الشعورية والعملية، إلى حقائق التفاهم والتقارب والاحترام المتبادل"[15] حيث يتراجع الاعتداد بالمطلق وتعطى الأهمية للنسبي في القضايا السابقة الذكر.

ينضاف إلى هذا أن عالمنا اليوم يعيش شرخا أخلاقيا خطيرا بسبب "تضخم" النزعة العلمية وفائض فكرة الإنسان الرقمي، حيث أن الأنترنت والتكنولوجيا الرقمية قد غيرت طريقة تفكير الإنسان وتعامله مع العالم مما أدى إلى فقدان بعض القيم الأخلاقية والاجتماعية التقليدية التي كانت ترتكز على التفاعل الحقيقي. إن النزعة المادية التي هيمنت على العالم اليوم تعد من أبرز التحديات التي تواجه العيش المشترك حيث الفرد معني بجمع المادة والرفاهية والاستهلاك، وفي خضم ذلك تسود الوحدة وتُفقد باستمرار العلاقة الإنسانية مع الآخر القريب والبعيد رغم ما يبدو من التواجد دوما معا، فالإنسان المعاصر

[14]- محمد محفوظ، التسامح وقضايا العيش المشترك، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص42

[15]– المرجع السابق، ص37.

موجود في وضعية "connected but alone" * وهي وضعية مقلقة جدا. والحق أن وضع المادية والفردانية والرقمية المفرطة الذي يميز إنسان اليوم ويهدد شعرية معيته مع الآخرين، مُضخِّما حيز الغربة والتشيؤ والعدمية جعل المفكرين يدقون ناقوس الخطر، فسار الرد الفلسفي في تجاه إعادة الاعتبار للقيم الأخلاقية بالبحث عن الإنسان الحميم الذي يتجاوز كونه رقما، الإنسان الودود القابل للتنازل عن قدر من وقته للإصغاء للوجود، الإنسان "المتخلق" الذي لا يمثل له الآخر درجة فقط على السلم بل باعث اجتهاد مستمر للتواصل معه بغية فهمه فهما يحسن نوعية الحياة معه، وكل هذا لكبح جماح الإنسان التقني الآلي المستعد للحروب المدمرة في كل وقت. وحدها الأخلاق تعيد التوازن إلى هذا العالم المتسارع التكنولوجيات، ووحده إنسان المعنى والقيمة "يدرك أكثر من غيره أن الإنسان ما خلق إلا ليتخلق، وأنه لا يكون له من الإنسانية إلا على قدر ما له من التخلق الذي من أجله خلق"[16] وتبعا لهذا تمظهر حديث التعايش عند كل الفلاسفة الذين خاضوا فيه بألفاظ كثيفة الحميمية، تنتمي إلى القاموس الاجتماعي الذي ينظر إلى أن الأصل في الإنسان هو كونه جميلا، محبا، لبقا، مضيافا،صدوقا.. وعُمّمت ألفاظ الأخلاق الأسرية على الأخلاق العالمية في خطابات تنشد تأسيسا للأسرة الكونية التي يمكن بناء علاقاتها على المودة والرحمة والأنس كما أسلفنا لا على المصلحة والضرورة والاقتضاء.

يأخذ الفيلسوف في التداول المعاصر لمسألة المعية في العالم –بوصفها أكثر الموضوعات إلحاحا- وضع الأم الحريصة على غرس جذور المحبة والأخوة والتعاضد بين أبنائها تحقيقا لفعل التعايش الذي يجب- كما أسلفنا مع فتحي التريكي- أن يكون "مفهوما بمعناه المتضمن في اللفظ العربي "تآنس" والذي يجمع بين اجتماعية الإنسان وحكمته وبين نشوة اللقاء والاختلاف الثري وبين الصداقة والحنان وأخيرا بين الضيافة والانفتاح على الآخر"[17] إن الفيلسوف اليوم يتأمل الارتباط بالآخر والتعايش معه كما لو أن الأمر يتعلق بعلاقة عاطفية محكومة بالنشوة والحنان وفضول الانجذاب نحو قيم الاختلاف، وهو يتأمل الموضوع على هذا النحو لإدراكه ما لهذه الصيغ اللفظية من تأثير عاطفي في نفسية هذا الإنسان الذي يكاد يفقد البوصلة لشد ما سيطر على الطبيعة والكون وكل شيء. لهذا يزيد الإلحاح على مشاعر المحبة وقيم الصداقة "وأن يكون المرء صديقا معناه أن يحب قبل أن يكون محبوبا"[18] والصداقة تستلزم حتما حسن الضيافة حيث يمكن للناس دوما التعامل مع بعضهم البعض بوصفهم ضيوفا على الأرض أولا، وضيوفا على بعضهم البعض ثانيا، والضيف استحق في كل الثقافات الاستقبال

*عنوان دراسة للباحثة شيري تيركل تعالج فيها تأثيرات التكنولوجيا الحديثة على القيم الإنسانية وضياع مفهوم الإنسان العميق في ظل فائض التواصل الذي منحته شبكات التواصل الاجتماعي.

[16]- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق" مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، المغرب، ط1، 2000، ص87

[17]- فتحي التريكي، جمالية العيش المشترك، ص12

[18]- جاك ديريدا، ماهي الصداقة ترجمة فتحي المسكيني،ص4 مؤمنون بلا حدود قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية https://www.mominoun.com/pdf1/2018-08/ssadaqa.pdf

والتكريم والترحيب الذي يجعله يجتهد من أجل رد جميل الاستقبال وكرم الضيافة أيضا. وإذا ما توفّرت إرادة النظر إلى الآخر بما هو موضوع حب وصداقة وضيافة لا موضوع منافسة وكراهية وعداوة ستجني الذات ثمار غرسها لا محالة فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ .

يلح فيلسوف اليوم-تجاوزا لمآزق المعية في العالم- أيضا على التثاقف بما هو سلوك يعين على التفاعل والتعاون بين الأفراد والجماعات المختلفة في لغتها ودينها وعاداتها وتقاليدها ويهدف إلى تحقيق فهم متبادل. ولعل وسائل التواصل التكنولوجية قدمت لتلك العملية كل التسهيلات التي تخطر على الذهن والتي لا تخطر.إن التثاقف بما هو "مجموع الظواهر الناجمة عن تماس موصول ومباشر بين مجموعة أفراد ذوي ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغييرات في النماذج Patterns الثقافية الأولى الخاصة بإحدى المجموعتين أو كليهما"[19] يُحقق عمليا التفاعل المتزايد بين الثقافات المختلفة ويؤدي بالتالي إلى اكتشاف الآخر وما ينطوي عليه من قيم عالية وإلى تعزيز الفهم المتبادل وتجاوز الخلافات الثقافية واللغوية ومن تم تجاوز معضلات التفرقة باسم خصوصية الهوية الثقافية، ويكون كل ذلك عبر الاحترام المتبادل الكفيل بتخفيف حجم العنف الذي يمكن أن تفرزه سياسات الإقصاء والتهميش عبر المنتوج الثقافي الداعم لها والذي يقوم على عنف رمزي واسع.

يلح فيلسوف اليوم وهو "يجاهد" من أجل معية شعرية وجميلة في العالم أيضا على التسامح وتحرير الذاكرة والمناقشة بين الناس جميعا بوصفهم "كائنات إيتيقية" تضطلع بحماية الجمال والقيم لأنهم لا يملكون توصيفا خارجها "فالناس ليس هم من يبدع الإيتيقا، بل إن الإيتيقا هي من يحدد كينونة الإنسان"[20] إنك إنسان بقدر ما أنت متخلق في ممارساتك وليس بقدر ما أنت منظّر للأخلاق. إنك إنسان بقدر ما أنت لطيف، لين، مستوعب لذوات الاختلاف التي تصادفك يوميا في محيطك العائلي، الاجتماعي، والعالمي مقتنعا بأنك لست الأفضل دائما وهم ليسوا الأسوأ دائما. إنك إنسان بقدر ما تبديه من تطلع لفهم تاريخ الآخر وحضارته وليس بقدر ما تمارسه من انطواء وانعزال واجتهاد في وضع المتاريس والحدود حول مملكتك. إن رهان إنسان اليوم هو القدرة على النظر إلى ما يعتقده إيجابيا في الآخر على أنه الاختلاف الضروري لاكتمال هويته الثقافية، والنظر إلى ما يعتقده سلبيا في الآخر على أنه هامش عارض لا يفسد للود قضية، فإذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا فسيتصالح مع ذاته أكثر وستنتعش علاقته مع الآخر القريب والبعيد على حد سواء، مجاوزة كل حواجز التحفظ، ومدركة لأرض المحبة والتودد حيث تُعقد كل المصالحات. والتسامح الذي نعنيه لا يقتصر على جانب دون آخر فهو " موقف متعقل وأخلاقي في السلوك والعلاقات البشرية. ولهذا فإننا لا نحصره في الميدان الديني فقط، بل نجعل منه موقفا سياسيا ضد كل تعصب وانغلاق في العلوم و

[19]- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية،ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص93

[20]- يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص08.

الأديان والسياسة و الأخلاق. هو بالأحرى مبدأ النضال ضد ما لا يقبل انطلاقا من إنسانية الإنسان. فالتسامح نضال ضد اللامقبول"[21] .

إن الفلسفة بهذا الصنيع تستبدل قوانين العيش معا الموضوعية التي تحاول المجتمعات والدول سنّها ولا تُحترم في كثير من الأحيان، بقوانين أشمل في التسامح وأكرم في العطاء الإنساني لأنها نابعة من العاطفة الإنسانية العميقة ولصيقة بالفطرة البشرية. وهي في كل هذا ترسخ في ضمير الطبقة المثقفة ذات الأثر الفاعل قناعةً مفادها أن "الإطار المحدد لكل أنواع التواصل بين الأنا والغير قد تمثل في "ما بين الذاتيات" وأصبحت هذه الأنا الأحادية، التصورية، المطلقة والمتعالية تصورات عقيمة"[22] تجبر الجميع على تجاوز عقم التعالي إلى خصوبة التواصل وشعرية اللقاء.

ندرك في ظل هذا أن التعايش/التعارف ليس فعلا عابرا ولا هو سلوكا يسيرا بل، هو عمل جهادي من نوع آخر يمارسه إنسان اليوم تفكيرا وكتابة وممارسة حياتية لدرء صدع هذا العالم. ونسجل في الوقت نفسه أن فكرة التعايش تنتعش فلسفيا كلما ظهرت متغيرات تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان كالحروب والفتن التي تؤجج العصبيات...ففي كل عصر-في الواقع- يحصل هذا وتُسهم الطبقة المثقفة في تكريس الصراع وينزاح نفر قليل من "العقلاء" إلى خطاب المحبة والأنس والتسامح وضرورة التعايش. إن هذا الأخير لا يتحقق إذن إلا ضمن شروط، هي بمثابة إبدالات للمآزق التي وقع فيها إنسان اليوم، وهذه الشروط هي: المحبة بدل الكراهية ، احترام خصوصية الآخر الثقافية والحضارية بدل الإغراق في تقديس الذات، التعارف وحسن التّضايف بدل التباعد والتمركز حول الأنا المتعالي الذي يعتقد أنه "محاط بالحمقى"* والانخراط في هذه العلاقة القديمة/ الجديدة يتأسس بدءا على لغة الرأفة بالمختلف حيث ينبغي لكل طرف إعادة النظر في لغته وتحرير معجمه من الألفاظ العنيفة التي ورثها وتحولت نسقا قاهرا مثل: الغريب، اللئيم، العدو، الكافر، الإرهابي، المتخلف،المتغطرس.. والتركيز في مقابل ذلك على المشترك الإنساني "فللكلمات والخطاب آثار على الآخر الذي سندخل في تواصل معه، لذا علينا تحمل

[21]- فتحي التريكي، الحداثة والفكر السياسي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد78-79 ، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1999، ص21.

[22]- فتحي التريكي،رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1992، ص19.

* "محاط بالحمقى"عنوان كتاب لتوماس إريكسون يحدد أنماط الشخصيات، وما يقال عن الشخصيات مفردة يقال عن الشعوب، حيث الاعتداد بالأصل المتعالي يؤدي إلى التنمر على الآخر، والتنمر يقود إلى تجاهل ما للآخر من مكونات قيمة تسهم –لو لقيت الاعتراف- في مغامرة الحضارة الإنسانية والتشارك الوجودي.

المسؤولية كاملة والالتزام في أقوالنا ومراعاة الآخر وحمايته؛ وعليه فقد شدد لفيناس على الأهمية الأخلاقية للكلام وتوظيفها لصالح الخير والطيبة واللّاعنف"[23]

بهذا المعنى تغدو فكرة المعية في العالم واجبا أخلاقيا يعني الجميع، خاصة وأن العيش معا لم يعد خيارا شخصيا بل صار، نتيجة تماهي الحدود بين الجماعات البشرية، ضرورة حتمية وإملاء واقعيا. إن "قروية" العالم اليوم تفرض علينا أكثر من أي وقت مضى ضرورة التعارف والتلاقي والتعايش على نحو جميل، تأسيسا لكون يسع الجميع، ونبذا للصراعات والحروب والأنساق التي جعلت منّا ومن الآخر-رغما عنا ورغما عنه- أضدادا، إن لم نقل أعداء، تتصارع وتُشوّه وجه الكوكب، وحري بها الاجتهاد لتجميله على الدوام "فما نتقاسمه ليس أي شيء اتفق: بل هو العالم. وبتعبير هايدغر: الآخرون ليسوا فقط يكونون "أيضا" بل هم يوجدون "معنا" وهكذا فإنه ليس ثمة فاصل أنطلوجي بين "العناية بأنفسنا"، وهو معنى الكينونة في العالم، وبين "رعاية "الدزاين بوصفه جزءا من ماهية عالمي"[24] (24) فما قيمة أن تنعم بالسعادة والرفاهية لترى كل صباح جارك (في العالم) تعيسا أو جائعا أو مريضا أو وحيدا؟

إن إنسان اليوم ولكي يفخر بإنسانيته الحقّة مطالب بتوسيع مفهوم "صلة الرحم": أليس جدير بالإنسان، برّا بأبيه الأول، وإخلاصا للأصل الواحد، التصالح والتعاطف مع الآخر بوصفه أخا غرّبه عنه معتقد ما أو جغرافيا ما أو لسان ما...وأن يجتهد في الاقتراب من ذلك المعتقد وتلك الجغرافيا وذلك اللسان تعرّفا غايته الاحتواء لا الفضول، وإصغاء جوهره الوصول إلى النواة الصوتية المتشابهة لا مجرد نزوة الاستمتاع إلى نغم نشاز، واحتراما نيته إعادة صياغة صورة الأخر الغريب بعقلانية ومسح الغبار الذي علا إطارها جرّاء تراكم الوصف المعادي الذي كرسته الصورولوجيا، وكل هذا بحثا عن الإنسان الجميل الممكن العيش معه، وتجاوزا لمشكلات الهوية والغيرية. ويجب أن نتذكر في كل هذا أن شعرية المعية لا تعني الانصهار في بوتقة واحدة، بقدر ما تعني الاحتفاء بالآخر قبولا بالتنوع وتعزيزا لمبدأ الشراكة الإنسانية الذي يُنافي الأنانية الحيوانية.

4. الخلاصة :

في ختام هذه الرحلة الفكرية، نصل إلى قناعة راسخة بأن "شعرية المعيّة" ليست ترفًا أدبيًا أو حلمًا طوباويًا، بل هي ضرورة وجودية وأخلاقية في عالم تتزايد فيه سبل الاتصال وتتعمق فيه أسباب الانفصال. لقد بيّن البحث أن السعي الإنساني نحو

[23]- محمد بكاي، أرخبيلات مابعد الحداثة رهانات الذات الإنسانية من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، دار الرافدين، بيروت، لبنان،ط1، 2017، ص314.

[24]- فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية ص40 -41

علاقة جميلة ومتآلفة مع الآخر هو توق فطري متجذر في تاريخ الفكر البشري، من الأديان التي دعت إلى التعارف، إلى الفلسفات التي جعلت من المحبة والأنس جوهر الكينونة الإنسانية.

لكن هذا السعي يصطدم اليوم بتحديات معاصرة ومعقدة. فمن جهة، تقف "الهوية "كصديق زائف، تتحول من مصدر غنى وتنوع إلى سجن انغلاقي يغذي التعصب وينظر إلى الآخر كتهديد وجودي. ومن جهة أخرى، يفرض منطق العصر المادي والرقمي عزلة جديدة، حيث يعيش الإنسان حالة "الاتصال دون تواصل"، فيغترب عن الآخر وعن ذاته في خضم سباق محموم نحو الاستهلاك والنجاح الفردي.

إن الإجابة التي يقدمها هذا البحث ليست في مزيد من القوانين أو التقنيات، بل في العودة إلى الإنسان نفسه، إلى قدرته على "التخلق" و"التجمل" في علاقته بالوجود. إنها دعوة لتبني "إتيقا التضايف" التي تقوم على أسس متينة: المحبة كدين مشترك، والضيافة كواجب كوني، والتسامح كجهاد مستمر ضد انغلاقات الذات، والتثاقف كجسر معرفي نحو الآخر. والأهم من كل ذلك، هي دعوة إلى تحمل المسؤولية الكاملة عن لغتنا، تلك الأداة التي يمكنها أن تبني قصورًا من الألفة أو تشعل حرائق من الكراهية.

في النهاية، إن شعرية المعيّة هي محاولة لتوسيع مفهوم "صلة الرحم" ليشمل الإنسانية جمعاء، ليس بهدف طمس الاختلافات والانصهار في هوية واحدة، بل للاحتفاء بهذا الاختلاف كشرط أساسي لإثراء وجودنا المشترك. إنها دعوة للنظر إلى الآخر ليس كـ"مشكلة" يجب حلها، بل كـ"شريك" في رحلة الوجود، لا تكتمل إنسانيتنا إلا برعايته واحترامه، تمامًا كما لا يكتمل معنى العالم إلا بوجوده معنا